صور الماء في الفضاء الشعري

قراءة في صور تعامل الشاعر العربي القديم مع الماء

جدي فاطمة الزهراء
كلية الآداب العلوم الإنسانية
جامعة سيدي بلعباس

بلغ العربي درجة الولع بالماء ، فهو هبة الحياة لبيئته الصحراوية و ما تلك النزعات التي نشبت من أجله. إلا اعترافا ضمنيا بأهميته فقد راح الخيال الشعري العربي يخلق للماء رموزا أسطورية ارتبطت بشعره بالجذب والقحط وطلب الحياة ، ليصبح الماء بذلك صورة شعرية تصف تلك الحياة التي تشتهي روحها الخصب.

☆تعامل العربي (الشاعر) القديم مع الماء:

أ)الصورة الطبيعية:

أقام العربي في مناطق صحراوية تخللتها سمة الجذب و القحط إذ هذا النوع من الطبيعة أو البيئة قد ولد نفسا قلقة تبحث عن سبيل الخلاص من رتابة الوضع و تدني درجة العيش الكريم ، و كان لمظهر الطبيعة النصيب الأكبر في التأثير على هذه النفس ، فانحباس المطر حول كل شيء إلى واقع يسوده عطش مرير ارتبط بشكل ما بحالة الموت التي لم يجد لها العربي حلا سوى الاستسلام لمشيئة السماء و عطائها و هذا ما أدى إلى نشوب حروب و صراعات من اجل هذه المادة الحيوية الماء.

فقد جاءت المصادر العربية الأدبية منها و التاريخية ، عن الحياة التي سادت في شبه الجزيرة العربية "إذ اتصلت الجزيرة العربية منذ فترات مبكرة بما يجاورها من حضارات زراعية أو نهرية، مثل الحضارات البابلية أو الفارسية..ولعب قيام ممتلكتي الحيرة والغساسنة على أطراف الدولتين الفارسية والرومانية أثره بالنسبة لهاتين الحضارتين أي حضارة النهر والزرع والاستقرار وحضارة البدو والوبر والإغارة واللااستقرار"(1)

و قد أثبت المصدر التاريخي أن قبائل "عاد وثمود وجديس ، وغيرهم من القبائل الموغلة في القدم ، وهي القبائل التي أهلكها التناحر القبلي المتواصل لأسباب غريبة لا تتعدى القحط و الجذب و العصبية القبلية العمياء"(2) و مما يبدو حليا في الأرشيف التاريخي لهذه الحضارات ، حضور الماء كمعادل استقرار و تمايز لها ، ولكن في المقابل قد هدد حضارة بدو أرادت لنفسها حضوة اختارتها في قضائها على اللااستقرار، فشوق العربي الذي أتعبه عطش باديته في رؤية منظر الينابيع والأنهار ، وهي تروي الأرض ، فيبعث الخير منها يظهر ذلك التعلق بأثر الربيع و الصيف وما يخلفانه من رضى وترقب سماء عقد أمله فيها بأمنية دوام الخير و بقاء الخصب .

وقد أشار بطرس البستاني لهذا وقال: "أن الربيع عندهم نجعة للإبل ومورد للرزق، فإذا أخطائهم أجذبت المراعي وجف الضرع وعم الجوع، فحياة البدوي من إبله، وحياة الإبل من الكلاء ، وقديما قال قائلهم (إذا أخصبت الذهناء

ربعت العرب جمعاء) وإذا ربعو: غيبت الشفار وأطفئت النار ، لأنهم يشربون اللبن ولا ينحرون النياق فعلهم أيام القحط وانقطاع الأمطار (3)"

وكأن خوف العربي من انحباس المطر أوجشه خيفة اقتراب موعد الشعور بالجوع ، فالصيف لن يظهر إلا وجه العبوس واليبوس لكل عشب أخضر لتغني فيه الغدران والآبار ، صدى الموت و الجفاف ، فيحل الضجر على هذه الحياة المتشابهة، و يظل العربي على هذه الحال خاضعا للقدر راجيا تبدل وجه السماء لتأتيه بالغيث.

فهذا التعلق العربي بعنصر الماء ، يحمل دلالات كثيرة ، كيف لا وقد اقترن الماء عنده بكل معنى الخير ، ومنظر حسن وفعل جميل ، فالحقيقة أن حضارتنا هي حضارة الماء فالإنسان القديم أولى اهتمامه بالمياه وهذا ما عبر عليه التاريخ القديم ، ويعبر عنه تاريخه المعاصر فالماء رمز ازدهار الشعب وتقدمه، ولا شيء يعادل هذا العنصر الحيوي إلا الحياة نفسها، فقد كان نقطة ارتكاز للعديد من الحضارات.

ب)الماء صورة مقدسة:

للبيئة تأثير على حياة الإنسان، وقد تكون العامل الأساسي في تقرير القيم الدينية التي تؤثر في الجماعة، فالإنسان ا لقديم كانت معرفته بدائية حسية للأشياء، الأمر الذي جعله يربط كل ظاهرة من الظواهر بقوة خفية يعجز عن قهرها وإنما يجعل له إلها يقدسه .

وفي حياة المجتمعات البدائية تكشف العقيدة القديمة عن الفترة الطوطمية فكانت " القبيلة وأسلافها والأرض التي تعيش عليها وما يتحكم فيها من عوامل مناخية واجتماعية وحدة تنحدر من الطوطم"(4)

فالذهن البدائي انجذب إلى عالم تحولت فيه روابطه مع الأشياء إلى نوع من السحر غاب فيه المنطق وحل محله اللامنطق.

ويبدو أن لكل شيء مقدس موضعه "فإلغائه- أو أن مجرد التفكير قد يدمر نظام الكون بأكمله ، فهو إذن يساهم بتدعيم هذا النظام حين يملأ المكان المخصص له "(5) و هذا الموضع من الكلم يثبت أن الذهن البدائي ، قد ارتبط بشكل أو بآخر بالعوامل المناخية و الاجتماعية و التي أصبحت "بنظرة جماعية بشرية معينة قيمة مقدسة " (6)

ربما يقع هذا المنطق الطوطمي الذي كان محل دراسة قام بها العالم البنائي الفرنسي * كلود ليفي شتراوس * والذي أظهر نوع العلاقة التي تجمع الطوطمية بالظواهر،إذ "الطوطمية كظاهرة حضارية تجيء كاستجابة أو حتمية الظروف ومكنونات طبيعية و بيئية وأن هناك علاقة شعائرية أو دينية بين الإنسان والطوطم ، و كثيرا ما تتمثل في الأشياء و المناهج المقدسة و لها سلطاتها الملزمة"(7) الإنسان حين يدخل موقف العجز حيال الظواهر الطبيعية فانه لا يستطيع تفسيرها بل يجعلها آلهة

الذهن البدائي جمعته علاقة بالكون والأشياء والكائنات، من بينها المرأة ، ونكشف من هذه العلاقة قضية متعلقة بالتناسل "إذ رأى الإنسان القديم أن التناسل سر تختص به المرأة وحدها وليس الرجل

دور فيه لذلك كان الجميع ينتسبون إلى الطوطم المقدس في الطبيعة ، وقد ربط الإنسان سر الخصوبة في المرأة بسر الخصوبة في الأرض في المجتمعات الزراعية بشكل خاص، لذلك عبدت الأرض بوصفها أما، ورمز لها في الدين القديم بآلهات أمهات أي أن معنى الأمومة هو المعبود في حالة الآلهة الأرض والآلهة المرأة"(8)

ويبدو أن المرأة قد هيمنت كدلالة رمزية على الشعر العربي القديم ، اذ طبيعة الصورة المقدسة لها في نفس الشاعر القديم هي صورة الخصب والنماء ووجها من وجوه الاستمرار والديمومة والحياة ، وتعود هذه الهيمنة إلى طبيعة هذا لكائن وإلى نوع المميزات التي يتميز بها ، وإذا أعلى الإنسان البدائي من قيمة هذا الكائن الأنثوي ، فلسر يتمتع به، ولم يتوان أن يكون نموذجا أسطوريا عجيبا، تدور في فلكه القوى الدينية والاجتماعية والتاريخية ، ليصبح بعد ذلك رمزا قويا و مؤثرا للخصب وهذا أشار إليه **غاستون باشلار** حين وجد "أن طبيعة المرأة اقرب إلى الماء والتراب..أما طبيعة الرجل فتحصر نفسها في الهواء والنار...وحين تأخذ المرأة بعض أشكال الثبات والتجدر يظل الرجل في منطقة الطارئ و العابر ، ويظل يدور في فلك المرأة ومجرتها دون أن يحقق فضائه الخاص"(9) وصل الفيلسوف غاستون باشلار إلى أن حقيقة الكائن الأنثوي **المرأة** يحمل دلالة الخصب والحياة ، وإن كان الرجل قادرا على دور الإخصاب .

ولما كان منوطا لهذا الكائن الأنثوي أن يكون معبودة فهذا جعلها نظيرا لرموز متعددة متعلقة بالخصوبة إذ " جمع العرب الصور المختلفة للأمومة أو الخصوبة كالمهات والغزالة والحصان من الحيوان

، النخلة والسمرة من النبات والمرأة من الإنسان فجعلوها رموزا مقدسة للشمس الأم ولهذا ظهرت هذه الرموز متجاورة عند تصوير الشعراء للمرأة"(10)

وبما أن الشعر العربي مستمد من صميم البيئة التي وجد فيها ومن الطبيعي أن يعبر عن الوجود الحي الذي كان يعيشه ، وأن يتحدث مع الواقع و يصفه ، فجاء الإحساس به نوعا من الاكتساب لكل شيء ، وأراد الشاعر أن يكون شاهدا يعطي لما يشهد له صورة تطابقه ، و كانت الصورة المقدسة للام النموذج الذي يشير إليه الشاعر في حديثه ، إذ جمع لها صفات الخصوبة والأمومة والمعبودة ، و في هذا يقول الأعشي:

كبردية الغيل وسط الغريق إذا خالط الماء فيها السرورا
و تفتر عن مشرق.. بارد كشوك السيال ، أسف الثورا
لها ملك كان يغشي القراف إذا خالط الظن منه الضميرا
فبان بحسنـــاء _براقة_ على أن في الطرف منها فتورا(11)

تظهر صورة الخصب في هذه الأبيات، إذ المرأة نبتة بردى وسط نبات ينمو في الماء مختلط بالريحان فهي في النهاية حسناء براقة وهي الشمس ، وتتجلى قداسة هذه الأم الشمس في كونها تتمتع بقوى خارقة تبهر الناس، فلها المقدرة على بعث الموتى إذا أسندتهم إلى صدرها و تبرز الدلالة هنا في ارتباط الثدي بالخصوبة وبالأمومة و في هذا اعتبر الأعشى قائل:

قد نهد الثدي على صدرها في مشرق ذي صبح نائر
لو أسندت ميتا إلى صدرها عاش و لم ينقل إلى قابر
حتى يقول الناس _مما رأوا_ يا عجبا.... للميت الناشر(12)

وتطالعنا صورة أخرى لزهير بن أبي سلمى حين يقول في المعبودة :

كأن رقتها بعد الكرى اغتبقت من طيب الراحي لما يعد أن عتقا
شبج السقاة على ناجودها شبما من ماء لينة ، لا طرقا و لا رنقا (13)

في البيتين تجتمع صورة الماء والخمر، فكلا العنصرين "يرتبطان بالدين القديم...وأما الماء فالآثار الدينية ما تزال عالقة بصورته حتى الآن فمنه يخلق كل شيء حي ، و هو أساس خصوبة الأرض و حياة ما ينبت فيها"(14).

وقد اكتسب الماء عدة دلالات ، سواء ما كان يختص بالنموذج المرأة دلالة الخصب و النماء ،أو بالرموز الشبيهة لها ممثلة في الحيوان المقدس : الحمار الوحشي ، أو الثور الوحشي الذي ارتبط بظواهر طبيعية.

ففي التاريخ القديم و في أبعد مرحلة بدائية ، تأصل فيها الدين القديم تظهر صورة الحيوان ، كصور لمعبودات الإنسان ، فهو إما طوطم جماعة، أو معبودها الممثل في اله سموي تتوجه إليه الجماعة في صلواتها ، فقد أظهرت مصادر التاريخ عن الفكر البشري وعلاقته بصورة الحمار الوحشي إلى جانب صورة الثور

الوحشي ، ذلك الجزء من الرغبة التي تلح على إنسان الصحراء في استعانته بهذه الصورة الأسطورية ليشير إلى علاقتها بالظواهر الطبيعية فقد تمثلت العلاقة التي تجمع بين الحمار الوحشي والثور الوحشي في صورة الخصب و الجذب إذ "تلازمت صورة الثور مع الشتاء العاصف و الممطر ، وصورة الحمار تتلازم مع نهاية الربيع وبداية الصيف وحوارته"(15)

وقد جمع امرؤ القيس صورة الحمار الوحشي مع الثور الوحشي في قوله :

كأني و رحلي فوق أحقب قارح بشربة أو طاو بعرنان موجس

الحمار الوحشي تصدر الصورة في الشطر الأول من البيت ، ليعدل الشاعر عنه إلى صورة الثور الوحشي الجائع المتوجس.

لم يكن الحمار الوحشي الحيوان الأسطوري الوحيد الذي تناوله الشعر العربي القديم ، فقد كان الثور الوحشي الوتيرة نفسها في الشعر ، إذ كان ظهور الحمار الوحشي في النهار ومع نهاية فصل الربيع ، و بداية الصيف ، فالثور قد بدأت محنته مع المطر والليل ، وتظهر تلك العلاقة البدائية مع الثور والإنسان ، عندما يصوغها الشاعر في شكل استسلام الثور لظاهر الطبيعي وهو اله الخير في منطق الأسطوري وقد ظهر هذا في ممارسة سحرية متمثلة في التوسل إلى الآلهة ، لإنزال الغيث و السيطرة على سقوطه ، باعتبار مسألة حياة أو موت فهطوله بكثرة يتلف المزروعات وانحباسه يؤدي إلى هلاك الزرع والضرع ،

وكان أهل الجاهلية في طريقة استسقائهم للمطر بحسب ما يروى الإخباريون " أن العرب كانوا إذا أصابهم الجفاف جمعوا أغصانا ، وتحايلوا على اصطياد الأبقار وحشية و ثيران ، و صعدوا المرتفعات فيشعلون النار في الأغصان و يربطونها إلى أذيال البقر و أرجلها الخلفية ، تاركين هذا القطيع المشتعل يهبط إلى السفوح"(16)

يبدو أن الظاهرة الطبيعية بكل أحداثها حيث ارتبط البقر بالمطر، وهذا ما يجعل للحيوان قوة التحكم في الحب و تنزيل المطر ، و يظهر أن عنصر النار في استدعاء المطر خصوصا يكاد يشكل الجزء المهم في الاستمطار بالنار ، وقد جعل سبب من أسباب السقيا في نظر العرب في عضو الجاهلية ، وقد صور الشاعر أمية بن أبي الصلت المشهد الذي وقع تحت نظره في أروع تصوير:

ويسوقون باقر السهل للطود مهازيل خشية أن يبـورا
عاقدين النار في شكر الأذناب عمدا كيما تهيج البحـورا
فاشتوت كلها ، فهاج عليهم ثم هاجت إلى الصبير صبيرا
فرآه الآلهة فرشم بالقطـر و أمسى خيامهم ممطـورا
فسقاها نشاصه واكف الغيث منه ،إذا رادعوه الكبيرا"(17)

يظهر الحيوان الثور في الصورة الشعرية الجاهلية، كمرادف للخصب فقد ارتبط بالممارسة السحرية التي أقامها العرب عندما تتابعت عليهم السنون، و اشتد الجذب ، فقصة الثور الوحشي "إنما هي تطور لترانيم أو ملاحم أو تفوهات دينية قديمة تتصل بقدسية الثور و ما كان يرمز إليه

من الخصب و المطر ،فكل صورة في القصائد تسرد لنا قصة الثور تذكر ليلة ممطرة"(18) إن الإشارة إلى ممطرة ، لدلالة واضحة على ذلك الارتباط القديم بين الثور و المطر والخصب.

ويبدو أن هطول المطر كان يثير شعور النشوة عند العرب، فتعلوه الغبطة بالمنظر الرائع و المشهد الأخاذ ولا يترجم هذا الإحساس سوى شاعرهم ، وقد جادت القريحة عنده بأروع أسماء الماء ، والخاصة بحالات المطر، من البرق وسحاب وسيول في فيض قصائده، لتشرق نظارة وتتألق صورها في ندى صاف ، فالماء "كان الفيصل القطع في سلب القصيدة شاعريتها، وخاصة حين كان الناقد القديم ، يصدر حكمه على القصيدة علنيا وحضوريا ، بأنه لا ماء فيها فتذبل كلماتها ، فتحرم من الانتشار و التداول"(19)

ولعل أجمل صور الماء تلك التي استهل بها امرؤ القيس بمقطعه الشعري، وهو يقدم دلالات إحياء المكان حين ارتوت الصحراء عقب الجذب والقحط فهو يقول:

أصاح ترى برقا أريك و ميضه كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبل المفتل
قعدت له و صحبتي بين ضارج وبين العذيب بعدما متأمل
على قطن بالشيم أيمن صوبه وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء حول كتيفة يكب على الاذقان دوح الكنهبل
ومر على القنان من نفيانه فأنزل منه العصم من كل منزل

و تيماء لم يترك بهـــا جـــذع نخل ولا أطما إلا مشيدا بجنـدل
كأن ثبيرا في عـــرانين و بلـه كبير أناس في بجاد مزمـــل
كأن ذرى رأس المجيـمر غـدوة من السيل و الأغثاء فلكة معـزل
وألقى بصحراء الغبيـط بعاعـه نزول اليماني ذي العياب المحمل
كأن مكـاكي الجـواء غديـــة صبحن سلافا من رحيق مفـلق
كأن السبـاع فيه غرقي عشـية بأرجانه القصوى أنابيش عنصل (20)

وقد ارتبطت قصائد الشاعر بالماء كذلك في شكل اشتياق وهجرة متكررة في سبيله ، وقد اتصلت الهجرة بطريقة ما "بصورة طقوسية تعلقت برحلتها عن الديار انتجاعا للمرعى ، ومصادر المياه فالرحلة في الشعر العربي رحلتان: رحلة قوم المحبوبة عن منازلهم ، ورحلة الشاعر على ناقته والرحلة الأولى هي التي تتعلق بالماء وهي التي تمتلئ بالطقوس ، إذ يمر الشاعر بالديار خلية مجذبة"(21)

يبدو الشاعر في هذا المشهد المكاني **الطلل** قد ارتسمت في قرارة نفسه صورة الماء ممثلة في الدموع و البكاء ، فكأنه ينقل إلى هذا المكان كل تلك الموجودات التي سكنت روحه، قد صورت اللغة قداسة الماء ومواطنه ، واتخذه الشاعر رمزا يصف من خلاله طبيعة موقف لحظة لقائه به ليكتمل شكل لحياة مع معناها عنده.

الهوامش

(1)د/ شوقي عبد الحكيم -الفلكلور و الأساطير العربية- دار ابن خلدون، بيروت، ط2 1983ص27

(2) المرجع نفسه ص 27

(3)

بطرس البستاني *أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ، دار الجيل بيروت 1986، ج1 ، ص 69.

(4) د/

شوقي عبد الحكيم -الفلكلور و الأساطير العربية ص 143

(5) كلود

ليفي شتراوسن -الفكر البري- ترجمة ناظر جاهل-المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع لبنان ط2-1987ص30

(6)

المرجع نفسه ص 273

(7) شوقي

عبد الحكيم -الفلكلور و الأساطير العربية ص10

(8)

د/ على البطل الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري دار الأندلس ، ط1/ 1985 ص55

(9)

غاستون باشلار-شاعرية أحلام يقظة- ترجمة جورج سعد ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع بيروت لبنان ط1/ ص67

(10)

د/ على البطل -الصورة في الشعر العربي-ص 72

(11)

ديوان الأعشى-شرح د/ يوسف شكري فرحات- دار الجيل ، بيروت ط1/ 1992 ص 131 -132

(12)

نفس الديوان ص 142

(13) شعر

زهير بن أبي سلمى-تحقيق د/ فخر الدين قباوة - دار الفكر دمشق سوريا -دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ط1/ 1681 ص 40

(14) د/

على البطل -الصورة في الشعر العربي ص74

(15)

نفس المرجع ص 138

(16)

الجاحظ -الحيوان ج4 / ص466

(17)

نفس المرجع ج4 ص466

(18)

محمد بن عب العزيز بن عبد الله -الماء في الفكر الإسلامي و الأدب العربي الملكة العربية وزارة الأوقاف و الشؤون الاسلامية1417ه/ 1996 ج2/ ص394

(19)

المرجع نفسه ج1/ ص120

(20)

ديوان امرؤ القيس دار صادر بيروت -ص59-61

(21)

د/ على البطل الصورة في الشعرالعربيص230